

كمال عمار والتلقائية الشعرية

ينتمي الشاعر المصري كمال عمار إلى الموجة الثانية في حركة الشعر الحديث وهي الموجة التي تفتح عطاؤها ونضج وإن لم يكتمل في عقد الستينيات وكانت بداياته الشعرية في أوائل الخمسينيات ولكنها كانت ساذجة حائرة بين العامية والفصحى تركز على نوع من السخرية السوداء ولكنها لم تمثل نهجا تجديديا يرشحه للانضمام إلى الموجة الأولى من هذه المدرسة.

ولد كمال عمار عام ١٩٣١م وتلقى تعليمه في الأزهر الشريف وعمل بالصحافة وكانت اللغة العامية تجتذبه فكتب كثيرا من الأغاني وربما امتصت هذه الأغاني رحيقه الشعري فجاء نتاجه دون توقعات المعجبين به والذين رأوا في ومضاته الشعرية بشيرا بنهار كامل ولكن تجربته خلال الثلاثين عاما الماضية قدمت لنا ثلاثة دواوين شعرية هي: «أنهار الملح» ١٩٦٨م و«صياد الوهم» عام ١٩٧١م و«من علمك الحكمة يا...» عام ١٩٨٢م وقد فاز هذا الديوان بجائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٨٤م. تكتسب التجربة الشعرية لكمال عمار خصوصية تدل على موهبة أصيلة تنهل من فيض عميق من الحساسية والحميمية والاقتراب الشديد من مناخ التراث سواء أتمثل هذا التراث في الكتب المقدسة التي يولع بالاقتراب منها وتمثل روحها أم في الفلكلور الشعبي وأول ما نلمحه في خصوصية أسلوبه الفني في قصائده هو اللغة البسيطة السهلة المركزة التي ترجع

مصادرها الأساسية إلى الواقع ببعديه النفسى والاجتماعى وإلى قراءات شائعة فى كتب الحكمة التقليدية. وهى لغة أقرب إلى لغة المسرح فهى لا تطمع إلى الجلال الذى تنشده الكلاسيكية ولا إلى الجمال الذى تهدف إليه الرومانسية وإنما هى لغة وسطى بين الفصحى والعامية بين لغة الكتب التقليدية والصحافة ويمثل التركيز الشديد أحد ملامحه الفنية خاصة فى ديوانه الأول «أنهار الملح» الذى يمثل ذروة تجربته الشعرية من حيث الكثافة وبراعة التصوير والنفاز والرؤية الإبداعية. أما الملمح الرئيسى الثالث فهو الجمل القصيرة والحوار وهى عناصر يوظفها الشاعر لخلق موقف قائم على الجدل والمفارقة داخل قصائده. تدل هذه الدواوين الثلاثة على طبع شعرى لا يطمح إلى بناء هياكل فنية شاهقة ولكنه يمثل الاستجابة الشعرية المفرطة الحساسة لموقف ذى مغزى من مواقف الحب أو الحزن أو الشوق إلى الحرية أو العدل أو التواصل الإنسانى. وقصائده يتبدى فيها الصراع الخفى الحاد بين شخصيات تفصلها فروق اجتماعية أو نفسية وقلما يلجأ الشاعر إلى تصوير الطبيعة بمعزل عن هذا الصراع الذى يقع بين الذوات المتصادمة أو فى داخل نفسه أو محيطه الاجتماعى. وتتجلى شاعريته فى اختبارات فنية خارج الذات مثل قصيدة الصحراء فى ديوانه «أنهار الملح» والتى يقول فيها:

الليل بئر أسود غطاؤه النجوم
تلمع فى استحياء
كأنها عيون عاشق صغير
والرياح فى الصحراء قطة تزوم

تبحث عن أليفها القديم
تقلب الرمال بالأصابع الخفية
تشم كل ذرة قصية
وتتأس الرياح من طوافها الحزين
فتستكين
وفجأة تدور باندفاع
في رقصة محمومة الوداع
وبعدها ينام كل شيء
حتى النجوم في مشارق الأفق
لم يبق إلا ساعة والليل يحترق
ويطلع النهار
ملتحفا عباءة من نار

إن هذه الطبيعة المفعمة بالسخونة والملبئة بالأسرار ذات دلالة رمزية قوية على وجدان غارق في الحزن يراوده بصيص من الأمل الذى تصوره النجوم وكأنها عيون عاشق صغير حيث يوحى الشاعر لنا بأن الحب والطفولة هما النور الوحيد المحتمل الذى يمكن أن يرفرف فوق بئر الليل فى الوقت الذى تدل الرياح على الوحدة واعتصار النفس بحثا عن أليف فى رحلة الحياة ولكنها تعجز فتستدير مودعة وكأن الموت الذى يتجلى فى النوم الذى يشمل كل شيء هو المصير المحتوم لهذه الرياح القلقة الحزينة ولكن النهار يشتعل فجأة ملتحفا عباءة من نار وهذه القصيدة من أشد البراهين على شاعرية كمال عمار ولكنها فى الوقت نفسه من أندر التجارب فى دواوينه الثلاثة. ولا نستطيع كذلك

أن نبتعد عن صورة الغراب لإدجار آلان بو ونحن نقرأ قصيدة الحصار
الذى يقول فيها :

ونام طائر الأحزان فى دمى
وفى أوان الفقس دق الباب
طير كبير الرأس أزغب البدن
حدق فى لحظتين من زمن
وأرعى الجناح ثم طار
وصاح بى ورددت صياحه الأشجار
أنكرتنى وظلمة المساء تملأ الأفق
يا طائر الأحزان كيف عشت فى دمى ولم أرك
كيف استطعت أن تجوب غورى الدفين
وكل ما بداخلى شرك
وذلك النواح كله لمن
إن كان لى أنا نسيت لوعة الغناء
يا أصدقاء
لا تتركونى لحظة المساء
قولوا له يكف عن غنائه الحزين

إن طعم الخديعة وخيبة الأمل وصدمة القلب التواق إلى الفرع
وانهيار صورة المثال هى ركائز التجربة الشعرية فى الدواوين الثلاثة
للشاعر كمال عمار ولكن التعبير يتفاوت من ديوان لآخر. فنحن فى
«أنهار الملح» أمام مواقف بالغة المرارة تتسم بالدرامية ولكنها تعبر رغم
ذلك عن تلقائية شعرية وعفوية فى الدفقة الشعرية. نوع من الانفجار

الفطرى لمشاعر عاجزة عن مواجهة واقع بالغ التعقيد تلعب فيه المناورة
والمكيدة والأقنعة دوراً رئيسياً فى النجاح والفشل على حد سواء فالحب
ينهار بمجرد سقوط الأقنعة والصدقة وهم والأحزان هى الحليف الوحيد
ويحاول الشاعر أن يختزل هذه الرؤية فى نزعة تأملية أو صوفية تتبنى
فى مضمونها رسالة أخلاقية فيلجأ إلى نوع من الخطاب الشعرى الذى
يتسريل بالحكمة فنراه يقول فى قصيدة «ثرثرة رجل منفرد»:

تسألنى ما بال حديقتنا
كفت هذا العام عن الإثمار
والظل ارتد وأضحى مثل النجم السيار
قاص وقريب
تسألنى حسنا سأجيب
حتى لو كان القول يسوء
ذلك أنا صلينا من غير وضوء
وزعمنا أنا أطهر من حبات الثلج
وكذبنا حتى صارت أعيننا دون جفون
حتى لما رحنا نسعى للحج
صرنا نخدع ملاح الزورق
حتى لا نعطيه الدينار
تسألنى ما بال حديقتنا
كفت هذا العام عن الإثمار
ذلك لا يدهشنى
حتى لو أنبتت الأحجار

ويأتى ديوانه «صياد الوهم» امتدادا لروح الفاجعة الصغيرة التي تسود ديوانه الأول ولكنه يميل إلى نوع من الافتعال مما يؤدي إلى لون من الضعف الفني. وتشيع فيه هذه النثرية التي كانت تفتقد شاعرية الموقف بحيث تتهافت التجربة بين حدود الشعر والنثر. وتتسع الرؤية الموضوعية فى ديوانه الثالث «من علمك الحكمة يا...» وهنا تكتسب قصائده نوعا من الغنائية وهو يقترب من الهموم الوطنية التي يطعمها بالحس التاريخي والإشارات إلى نماذج من الأبطال والفرسان وشواهد من المكان القديم وروح الفتوحات الأولى يقترب الشاعر من نهار الواقع بكل ما يضح به من زحام وفوضى وضجيج وموسيقية ولكنه يتخلى عن عالم الظلام الملى بالدلالات والرموز والاحتمالات لتصبح القصيدة إفضاء تلقائيا خاليا من مراوغة الفن وحيله ولكن هذه الدواوين تظل شاهدا على شاعرية أقرب إلى الطبع والتلقائية الشعرية من أعمال الصنعة وتكلف الأشكال الحديثة وبهذا يكتسب الشاعر كمال عمار خصوصيته داخل جيله من شعراء الستينيات.

